(9) خُبَيْب بن عدى رضي الله عنه

هو أول من صلب فى سبيل الله، وأول من سن ركعتين قبل قتله. إنه خُبَيب بن عدى الأوسي الأنصارى، بليع الأرض، وشهيد يوم الرجيع ـ اسم موضع ماء ـ لم نعرف من حياته إلا أنه قتل غدراً مع اخوانه فى سبيل الله تعالى، وحزن الرسول ﷺ عليهم حزنًا شديداً، وقبل استشهاده لقن المشركين درسًا عظيمًا فى البطولة والشجاعة، بل وعلمهم كيف يكون الحب لرسول الله ﷺ.

هيا معًا نقلب الأوراق، ونقترب من حياته، أو بعض حياته أكثر وأكثر.

***

كغيره من شباب الأنصار بادر إلى الدخول فى دين الله، والسبق إليه، فقد كان ذا عقل راجح يسمع عن الحق فيسير إليه، ويسمعه فينصت له ويسير عليه. هو من خيار شباب الإسلام المجاهد، فقد شهد غزوة بدر وأحد وبذا فهو من طليعة المجاهدين فى المعارك الأولى. وفى غزوة بدر أبلى أعظم البلاء وأحسنه وقتل فيها صنديداً [1] من صناديد قريش هو الحارث بن عامر بن نوفل، فحفظ أهل الحارث اسم خبيب جيداً، وودوا لو ظفروا به لإدراك ثأر سيدهم الحارث.

وتشاء إرادة الله تعالى أن يبعث رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه يتحسسون أخبار قريش، ويستطلعون تحركاتها، واستعداداتها لغزو المسلمين؛ فاختار عاصم بن ثابت رضي الله عنه أميراً على السرية التى ضمت خبيب بن عدى رضي الله عنه، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى رضي الله عنه، وغيرهم واتجهت السرية نحو مكة المكرمة فى صفر من السنة الرابعة للهجرة، وفى الطريق بين عسفان [2] ومكة علمت بهم إحدى قبائل العرب المشركة، وهم بنو لحيان، فأرسلوا فى أثرهم [3] مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر، فقال بعضهم لبعض ـ وكانوا أهل علم وفراسة ـ نوى تمر يثرب، إنهم فى هذه المنطقة لم يبعدوا عنها. وأخذوا يتتبعون آثارهم حتى وصلوا إليهم، وكان المسلمون لما علموا بهم قد لجأوا إلى موضع مرتفع يتحصنون فيه فأحاط بهم المشركون من كل جانب، وطلبوا

(1) صنديد: الشديد.

(2) عسفان: قرية بين مكة والمدينة.

(3) أثرهم: خلفهم وورائهم.

منهم الاستسلام، وقالوا لهم: انزلوا واستسلموا، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا. فقال عاصم بن ثابت رضي الله عنه أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فما كان من المشركين إلا أن رموهم بالنبال، فقُتل عاصم رضي الله عنه فى سبعة من أصحابه، وبقى خبيب بن عدى رضي الله عنه وزيد بن الدثنة رضي الله عنه، وعبد الله بن طارق رضي الله عنه، فنزلوا على العهد والميثاق، فلما تمكن منهم المشركون ربطوهما. فقال عبد الله بن طارق رضي الله عنه: هذا أول الغدر. والله لا أصحبكم، إن لى بهؤلاء أسوة ـ يعنى أصحابه الذين قتلوا ـ وأخذ يقاومهم ويحاول أن يفك قيده، وأبى أن يصحبهم. فجرجروه حتى قتلوه، ومضى شهيدًا إلى ربه كإخوانه السابقين.

بقى خبيب بن عدى رضي الله عنه، وزيد بن الدثنة رضي الله عنه فقدم بهما المشركون مكة المكرمة، وما أن سمع بنو الحارث بن عامر اسم خبيب بن عدى رضي الله عنه حتى تذكروه، وكيف ينسوا قاتل سيدهم الحارث يوم بدر، وكيف ينسوا ثأرهم منه وقلوبهم مازالت مشتعلة غيظًا وهمًا، وآن لهم أن يثأروا لسيدهم فها هو القاتل يباع أمامهم، فاسرعوا إلى شرائه ليطفئوا بدمائه نار أحقادهم.

***

فوّض خبيب رضي الله عنه أمره إلى الله تعالى عندما أخذه المشركون وأوثقوه وسجنوه، وساموه سوء العذاب[1] ليردونه عن دينه، فأبى، فأخبروه بمقتل زميله زيد بن الدثنة رضي الله عنه لتنهار مقاومته، ويعطيهم ما يريدون، ولكن فشلت محاولاتهم، وظل خبيب رضي الله عنه متمسكًا بإيمانه، قابضًا على دينه، ثابتًا على عقيدته، فقرروا قتله والخلاص منه، فحبسوه فى أحد ديارهم لحين إعداد صليب من جذوع النخل حتى يصلبوه عليه.

وتحكى امرأة من بنى الحارث عن المدة التى مكثها خبيب رضي الله عنه، فتقول أنها اطلعت عليه ذات يوم فى محبسه، فرأت فى يده قِطْفًا[2] من عنب يأكل منه وهو موثق[3] فى الحديد وما بمكة يومئذ من ثمرة.

(1) ساموه سوء العذاب: أذاقوه أشد العذاب.
(2) القطف: العنقود حين يقطف.
(3) موَثق: مقيد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

ثم تحكى المرأة إن خبيبًا لما علم بموعد قتله استعار منها موسى لإزالة شعر عانته؛ استعدادًا للقاء ربه، فأرسلته إليه مع صبى لها، فلما دخل عليه الصبى بالموس طار عقل المرأة، وقالت فى نفسها: ماذا صنعت؟! لقد أصاب الرجل ثأره، إن الصبى أمامه، والموس بيده، فيقتله فيكون رجلاً برجل.

ويدرك خبيب رضي الله عنه فزع المرأة وخوفها على ابنها، فيطمئنها قائلاً: أتحسبين أن أقتله؟! ما كنت لأفعل ذلك، إن ديننا يحرم علينا الغدر.

***

جهز المشركون عدتهم، وفى اليوم المحدد لقتل خبيب رضي الله عنه وصلبه، خرجوا به من الحرم إلى التنعيم[1] حتى لا يقتلوه فى الحرم، ولما وصلوا إلى حيث يريدون طلب منهم خبيب رضي الله عنه أن يَدَعوه حتى يصلى ركعتين، فقالوا له: دونك فاركع. فصلى ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم يقول لهم: والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعًا من القتل لزدت من الصلاة واستكثرت.

.. وبذلك فخبيب رضي الله عنه هو أو من سن صلاة ركعتين قبل القتل.

التفت أبو سفيان بن حرب ـ وكان يومئذ مشركًا ـ إلى خبيب رضي الله عنه، وسأله كما سأل زيد بن الدّثنّة رضي الله عنه قبله: يا خبيب، أتحب أن تكون فى أهلك وولدك معافى آمنًا ويكون محمد مكانك؟ فانتفض خبيب رضي الله عنه عند سماع السؤال، وأجاب بصوت قوى: لا والله ما أحب أن أكون فى دارى آمنًا معافى ومعى الدنيا وما فيها ويصاب محمد ﷺ بشوكة.

نفس المعنى الذى ذكره زيد بن الدثنة رضي الله عنه قبل قتله.

يستمع أبو سفيان بن حرب إلى هذه الكلمات فيتملكه العجب، فيضرب كفًا بكف وهو يقول: والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما رأيت أصحاب محمد يحبون محمدًا، ثم أمر برفع خبيب رضي الله عنه وربطه ليتم صلبه، فيلتفت خبيب رضي الله عنه وهو مقيد معلق إلى من حوله، فيقول: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه ما يصنع بنا،

(1) التنعيم: اسم موضع خارج الحرم.

ثم دعا ربه: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً[1] ولا تبق منهم أحداً. ثم أنشد قائلا:

ولست أبالى حين أُقتَـــل مسلمًـــا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى[2]

وذاك فى ذات الإلـــه وإن يشـــأ ... يبارك على أوْصال[3] شِلْو[4] ممـزّع[5]

ولم يتمالك المشركون أنفسهم أمام هذه الشجاعة النادرة، والبطولة الفائقة فرموه بالنبل حتى قتلوه، ثم تركه مصلوبًا.

وفى هذه اللحظات كان جبريل عليه السلام قد أخبر رسول الله ﷺ بما حدث لأهل السرية، فأرسل عمرو بن أمية الضمرى رضي الله عنه إلى حيث صُلب خبيب بن عدى رضي الله عنه لانزاله ثم دفنه.

وصل عمرو بن أمية رضي الله عنه متخفيًا إلى حيث توجد الجثة الطاهرة دون أن يعلم به أحد، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المهمة المكلف بها، وهو يخشى أن يراه راء. وجاءت لحظة غافل فيها من كان يحرس جثة خبيب رضي الله عنه، فصعد وحل وثاقه[6]، وفك رباطه ثم احتمله وسار به، فعلم به أهل مكة، فاقتفوا أثره، وساروا خلفه حتى إذا كانوا على مقربة منه سقطت منه جثة الشهيد. ورأى عمرو بعينى رأسه أن الأرض قد انشقت وابتلعتها. ولا يُعلم لخبيب رضي الله عنه قبر إلى الآن. كل ما يمكن أن يقال هو أن الأرض قد ضمت جسده الطاهر، أما روحه الخالدة فهى فى السماء، بل فى الفردوس الأعلى؛ لتنعم بما أعده الله لها.

• من فضائل خبيب رضي الله عنه:

(1) روى البخارى أن امرأة من بنى الحارث قالت عن خبيب يوم أن كان أسيراً قبل قتله بمكة «ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وانه لموثق فى الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله».

---

(1) بددًا: متفرقين.

(2) مصرعى: مقتلى.

(3) أوصال: جمع وَصْل، وهو العضو.

(4) شلْو: يطلق على العضو، وهو هنا بمعنى الجسد.

(5) ممزَع: مقطّع.

(6) حل وثاقه: فك قيده ورباطه.